تلوث الهواء في التراث الإسلامي

لطف الله قـــاري
ينبـع الصناعية

خلق الله الإنسان ، وجعل على الأرض بيئة صالحة لحياته ومعيشته مكونة من نباتات متنوعة ، وكائنات حية مختلفة ، وأنهار وعيون ، وهواء نقي منعش ، وتربة تعطيه من كل الخيرات . وبذلك وجد الإنسان القديم ما سهل له العيش والسعادة فتناسل من بعد ذلك وتكاثر .

ولما تزايدت أعداد البشر على وجه الأرض ، بدأت معهم ظواهر التلوث ، فأماكن تجمعات الشعوب البدائية عرفت من ملوثاتها ، وهي أكوام القشور والقواقع وأكداس الأشياء المكسرة ، ولكن التلوث لم يكن مشكلة في ذلك الزمان لقلة اعداد البشر بالنسبة لمساحة الأراضي التي كانوا يعيشون عليها . ولما بدأ الناس يتجمعون باعداد كبيرة في المدن والقرى ، أصبح التلوث مشكلة وظل كذلك منذ ذلك الحين ، فقد كانت المدن في العصور القديمة أماكن مؤذية وضارة بالصحة تلوثت بالفضلات الآدمية والقمامة ، ثم تطور الأمر إلى أن أصبحت المدن غير النظيفة بيئة خصبة لأوبئة تحصد أرواح السواد الأعظم من السكان . وفي القرن التاسع عشر الميلادي كان تلوث الهواء والماء وتجمع الفضلات الصلبة مشكلة لبعض المدن الكبيرة . ومع تطور الصناعة وانتشار التقنية في عصرنا الحاضر أصبح التلوث مشكلة عالمية عمت جميع بقاع الأرض ، وأصبحنا نسمع من حين لآخر بظاهرة جديدة من ظواهر التلوث .

ورغم ما كتب وقيل عن التلوث ومشاكله سابقاً وحاضراً إلا أن هذا المقال سوف يتعرض للجهود التي بذلت في الكتابة في هذا الموضوع من قبل المسلمين ولذلك اخترنا له عنوان **تلوث الهواء في التراث الإسلامي** .

جاء الرسول ﷺ بهدى من الله شمل اصلاح العقيدة واصلاح البشر ، فكان من بين ما جاء به فوائد وتنبيهات على أمور تمس حياة البشر اليومية ، ولم يكن لهم بها علم من قبل . من ذلك توجيهات قيمة في مجال حفظ الصحة ، وردت في أحاديث كثيرة ، بحيث تألف من هذه التوجيهات الكريمة منهج عرف بالطب النبوي . فقد وردت أحاديث أمرت بالنظافة ، وأخرى أرشدت إلى تطبيق مبدأ الحجر الصحي من أجل حصر الوباء والتلوث . فمن ذلك حديث بوصي بازالة القمامة فوراً من أجل تجنب التلوث فقد ورد عنه ﷺ أنه قال : « **ان الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفناءكم وساحاتكم ، ولا تشبهوا باليهود ، يجمعون الأكباء في دورهم**[1] » .

وقد كان ﷺ يطبق أمور النظافة في حياته اليومية فكان يقضي حاجته على مسافة بعيدة من الناس ، وينهى عن قضاء الحاجة في الأماكن التي يرتادها الناس كالطرقات والأماكن الظليلة[2] ، وينهى عن البصاق في المسجد ، وأمر بدفن البصقة (متفق عليه) . وحذر ﷺ أمته من تعريض الأواني المكشوفة للتلوث الهوائي ، حيث ورد في الصحيحين أنه قال : « **غطوا الأناء ، وأوكوا السقاء** » .

ثم جاء عصر الفتوحات الإسلامية بعد الرسول ﷺ ، فاتسعت دولة الإسلام وبرزت نهضة علمية هائلة ما عرف لها التاريخ مثيل ، فكان اهتمام المسلمين بشتى أنواع العلوم والمعارف اهتماماً لاتزال الأبحاث الحديثة في تاريخ العلوم تكشف عن مدى عظمته .

كان من جملة ما أهتم به العلماء المسلمون وغيرهم من الذميين الذين عاشوا في دولة الإسلام تأثير التلوث الهوائي على صحة البشر ، وكونه سبباً في احداث الأمراض والأوبئة ، فقام عدد من الأطباء المترجمين من أمثال حنين بن اسحق وثابت بن قرة بترجمة كتب أطباء اليونان التي ألفت عن تأثير الأهوية والأزمنة والبلدان على الصحة ، ثم كتب أطباء الإسلام بعد ذلك مؤلفاتهم الخاصة حول الموضوع .

وجاء العلامة الكندي (المتوفى سنة ٢٥٦ هجرية ـ ٨٧٠م) بأعاجيب في التأليف الموسوعي حيث ألف في الفلسفة والموسيقى والفلك والتنجيم والكيمياء والطب والصناعات والفيزياء وعلوم الجو (الأرصاد الجوية) والعلوم والهندسة ، وبرع في أكثر تلك العلوم . وكان من ضمن انجازاته الرائعة أوائل البحوث التي اهتمت بمعالجة التلوث الهوائي ، حيث ألف مقالتين في الموضوع احداهما بعنوان « رسالة في الأبخرة المصلحة للجو من الأوباء » والأخرى بعنوان « الأدوية المشفية من الروائح المؤذية » .

أما الرازي (المتوفى سنة ٣١٣ هجرية ـ ٩٢٥م) فقد رويت عنه قصة مشهورة تدل على اهتمامه بتأثير التلوث الهوائي ، فقد

(١) الطب النبوي لابن القيم ، نقلاً عن مسند البزار ، رواه الترمذي وضعفه .

(٢) جامع الأصول لابن الأثير : كتاب الطهارة في حرف الطاء .

استشاره عضد الدولة بن بويه ليختار موقعاً للبيمارستان (المستشفى) العضدي ببغداد ، فما كان منه إلا أن أمر بعض الغلمان أن يعلق في كل ناحية من جانبي بغداد قطعة لحم ، واختار من تلك النواحي الناحية التي لم يفسد فيها اللحم بسرعة ، فأشار بان يبنى في ذلك الموضع ، وتم ذلك فعلاً .

وقد ألف الرازي رسالة في تأثير فصل الربيع وتغير الهواء تبعاً لذلك وتفتح الورود والأزهار على الأنف باحداث الزكام المزمن ، حيث يظهر هذا الداء في فصل الربيع حين تتفتح الازهار ، فتملأ الجو بغبار الطلع الذي يدخل بتماس مباشر مع مخاطية الأنف ، فيسبب هذا النوع الخاص من الزكام ، وقد يبدأ في فصل الصيف أحياناً ، وهذا عائد إلى نوعية الأشجار والنباتات التي تنمو في المنطقة ، وموعد تفتح أزهارها ، وحساسية المريض لها .

ومن ارائه الصائبة في مجال التلوث الهوائي قوله في مقالة بعنوان « سر صناعة الطب » : ان كثر الضباب ببلدة مع تواتر الأمطار فأنذرهم بحدوث الجدري والحصبة والطواعين ، فهذا القول يوضح العلاقة بين الجو الساكن والتلوث .

وفي حوالي عام ٣٧٠ هجرية ــ ٩٨٠م ألف محمد بن أحمد التميمي كتاباً خاصاً بموضوع التلوث الهوائي أسماه « مادة البقاء باصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء » .

والذي شمل عدداً من المواضيع منها :

١ ــ آراء أبقراط وجالينوس وأرسطو واهرن في الموضوع .

٢ ــ شرح أنواع الهواء الملوث في الاقطار الإسلامية وعلاقتها بالفصول والأماكن .

٣ ــ الأمراض الناتجة عن تلوث الهواء وكونها أمراضاً معدية .

٤ ــ الطرق الصحية للوقاية من العدوى عند حدوث الوباء .

٥ ــ أنواع البخور التي تعالج تلوث الهواء .

٦ ــ معالجة تلوث المياه الآسنة التي تنتج ملوثات الهواء .

٧ ــ أدوية تقوي جهاز المناعة ضد العدوى والأوبئة .

٨ ــ أنواع العلاجات لمن أصيبوا بالأمراض الناتجة عن التلوث الهوائي .

أما أبو مروان عبدالملك بن زهر الاندلسي (المتوفى سنة ٥٥٧ هجرية ــ ١١٦٢م) فقد تحدث في كتابه « التيسير في المداواة والتدبير » عن فساد الهواء الذي يهب من المستنقعات والبرك ذات الماء الراكد ، وكذلك فعل ابن المجوسي علي بن العباس (المتوفى حوالي سنة ٤٠٠ هجرية ــ ١٠١٠م) في كتابه « كامل الصناعة الطبية » أو « الملكي » .

وكان كبار أطباء الإسلام يوصون تلاميذهم بأن يولوا موضوع التلوث الهوائي وتأثير البيئة عناية خاصة عند تشخيص المرض ، فقد وردت في كتاب « بستان الأطباء وروضة الألباء » « لابن المطران الدمشقي » (المتوفى سنة ٥٨٧ هجرية ــ ١١٩١م) الوصية التالية :

« ينبغي للطبيب ان يكون إذا قدم على مداواة قوم في بلد ، ان ينظر في وضع المدينة ، ومزاج الهواء المحيط بها ، والمياه الجارية فيها ، والتدبير الخاص الذي يستعمله قوم دون قوم . فان هذه هي الأصول . ثم بعدها النظر في سائر الشرائط » .

وكتب العلامة ابن القيم (المتوفى سنة ٧٥ هجرية ١٣٥م) في كتابه « الطب النبوي » فصلاً عن الأوبئة التي تنتشر بسبب التلوث الهوائي . وقد لخص ذلك الفصل بقوله : « والمقصود ان فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام والعلة الفاعلة للطاعون ، وأن فساد جوهر الهواء الموجب لحدوث الوباء وفساده يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة ، لغلبة أحدى الكيفيات الرديئة عليه ، كالعفونة والنتن والسمية ، في أي وقت كان من أوقات السنة ، وان كان أكثر حدوثه في أواخر الصيف ، وفي الخريف غالباً ، لكثرة اجتماع الفضلات المرارية الحادة وغيرها في فصل الصيف ، وعدم تحللها في آخره ، وفي الخريف لبرد الجو ، وردغة الأبخرة والفضلات التي كانت تتحلل في فصل الصيف ، فتنحصر فتسخن فتعفن ، فتحدث العفنة ، ولاسيما إذا صادفت البدن مستعداً قابلاً رهلاً قليل الحركة كثير المواد ، فهذا لا يكاد يفلت من العطب » .

وفي القرون الأخيرة عم الجهل بلاد المسلمين ، وفترت الهمم . وكان من نتائج ذلك أن تركوا الاهتمام بأمور معاشهم التي حث الإسلام على الاهتمام بها . ومن أمثلة ذلك أن بعض المتزمتين في ذلك الزمان شجعوا على التواكل ، وعلى عدم الاهتمام بأمور الوقاية من الأوبئة التي كانت تجتاح العالم الإسلامي وتفني أفراده . فألف أحد العلماء الجزائريين ــ وهو حمدان خواجه الجزائري ــ سنة ١٢٥٣ هجرية كتاباً عن التلوث المسبب للوباء ، سماه : « اتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء » وكان الهدف من تأليف ذلك الكتاب هو التنبيه على وجوب الأخذ بأسباب الوقاية من الأوبئة ، بتطهير الهواء والتزام النظافة .

يقول هذا العالم في كتابه « والذي ينقدح لنا أن أصل تولد هذا المرض هو تعفن الهواء ، وتولد السمية فيه ، كما صرح به الحكماء (أي أطباء اليونان والمسلمين) ، ووافقهم عليه طوائف الافرنج . فاعتنوا باصلاح الهواء وازالة العفونات في مصر ــ حين دخلوها سنة ١٢١٣م فلم يساعدهم عوام أهل مصر في مقترحهم » .

وختاماً ألا يحق لنا أن نفتخر نحن المسلمون بما ساهم به علماؤنا في مجال التلوث ومكافحته . . . حتى قبل أن يعرفه الآخرون .